لغة العلوم

... إن بلادنا العربيّة بلاد نامية اقتصادياً، ولكنها علمياً بلاد متقدِّمة، لأن لها ثقافة روحية وتشريعية عظيمة، ولها أدب عالمي خالد، ولغتها بالمكانة التي ذكرت، فليس ينقصها إلّا تكوين علمي تقني سريع لتلحق بالركب الطلائعي التقدُّمي وتجبر خللها الاقتصادي الذي يلز بها في حظيرة الشعوب النامية. وربما كان هذا التكوين هو ما يعنيه ووستر بالتدريب الفَنّي على ما جاء في آخر كلامه.

ويؤيد هذا أن الحكومة المغربية استقدَّمت لجنة من خبراء البنك الدولي للإنشاء والتعمير بقصد الاستشارة، فكان من رأيها أن ازدواجية لغة التعليم هي مما يستنزف مالية المغرب (تبلغ ميزانية وزارة التهذيب الوطني المغربية 50 ملياراً من الفرنكات يُصرف معظمها في أجور الأساتذة الفرنسيين)، فضلاً عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم، وأوصت باعتماد لغة البلاد وجعلها اللّغة الأساسية للتعليم.

ولقد يعجب القارئ من إخلاص هذه اللجنة الأجنبية وإشارتها الصائبة، ولكنه إذا ذكر أنها لجنة مالية لا ثقافية، وأن ما قامت به هو مقارنة الأرقام بين الموارد والمصارف، في قطاعات المصالح الحكومية، فلم يكن يهمها التمكين لهذه الجهة أو تلك وإنما غرضها إيجاد وضع مالي سليم

- إذا ذكر ذلك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصة.

وعليه فإن ما بيننا وبين تخطي عتبة التخلُّف هو نشر التعليم بلغتنا القومية، ورفع مستوى شعوبنا من الأمية العلمية التي تتخبَّط فيها إلى مستوى الشعوب المتعلِّمة المتمرِّسة ببسائط العلوم ونواميس الطبيعة، أي نقل العلم إلى المجتمع العربي وجعل أفراده يدركون حقائقه وبديهياته كما يدركها أي فرد في مجتمع راقٍ من المجتمعات المعاصرة، ولن يكون إلّا إذا تعلَّم الشعب العربي بلغته الأم، وطوَّع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مبناها ومعناها. أما أن يتعلَّم عدد من الأشخاص بلغة أجنبية فمعناه نقل هؤلاء الأشخاص إلى عالم العلم وزيادة عدد المتعلِّمين في اللّغة التي تعلَّموا بها، فلا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم لأن التفاهم بينها وبينهم معدوم، بسبب اللّغة التي هي أكبر حاجز يمنع هذا التفاهم، بل يمنع حتى الاتصال. ولَعلّ هذا هو السر في أن النهضة العلمية في بعض الأقطار العربيّة بدأت منذ نحو قرن ومازالت لم تؤتِ أكلها على النحو المرغوب، ومازال الشعب العربي فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى.

يُشير بعضهم إلى وجود ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم في آخر ما أنتجت من أجل التقدُّم الإنساني المطّرد، قائلاً إن ذلك لا يتأتّى إلّا لمن تلقّى تعليمه العالي بإحدى هذه اللّغات الأجنبية الحيَّة، ونحن نقول إنه يتأتّى لمن أتقن لغة من تلك اللّغات ولا يلزم أن يتلقّى تعليمه العالي بها، وقد قلنا بضرورة تلقين لغة أجنبية أو لغتين منذ المرحلة الثانوية للتعليم. وإنما الذي ينبغي تأكيده هو أن يكون هذا التلقين قوياً ليتقن المتعلِّم تلك اللّغة كما هو الحال عند غيرنا من الأمم

والشعوب. فإذا جاءت مرحلة التعليم العالي وحصل الطالب على الدرجة العلمية المنشودة بلغته الأصلية كان عنده من الوسائل العملية ما يؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمي والتقني في العالم بكلّ نجاح إن هو أراد ذلك. وهذا هو ما يفعله العالم الفرنسي والألماني وغيرهما من علماء الأمم التي تقف في الصف الأول من حيث التصنيف في التقدُّم والحضارة. وكذا علماء غير هذه الأمم ممن يقفون في الصف الثاني وإن كانوا في الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك، فليس منهم من يدرس العلوم في بلاده بغير لغته القومية، اللهم إلّا أن يستمع لأستاذ أجنبي تستقدمه جامعته لإلقاء بعض المحاضرات في فرعٍ من فروع المعرفة يكون له فضل علم به، أو يذهب في بعثة دراسية إلى بلدٍ أجنبي، وحينئذ تكون اللّغة الأجنبية التي لقنها في الثانوي هي وسيلته للدراسة، وهو بإقامته في ذلك البلد الأجنبي لابد أن يتقوى في لغته حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها.

وعلى كلّ فإن الاطّلاع على دنيا العلوم وما يجدّ فيها من تجارب وكشوف، مرهون بالهمة والنشاط وحب المعرفة أكثر من أي شيء آخر، فكم من دارس بهذه اللّغة الأجنبية أو تلك قد تمكَّن منها كلّ التمكُّن وصار أعرف بها من كثير من أهلها، وإذا تكلَّم بها فإنه لا يخرم حرفاً ولا نبرة من نبراتها، ولكنه في مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار، لقد انقطع ما بينه وبين التحصيل منذ تخرُّجه، ولم تفد منه أمته شيئاً يذكر. بل هو يُشكِّل خصماً لها بما أنه تنكَّر لمعارفها ولغتها حتى لقد أصبح عبئاً ثقيلاً على مجتمع لا يستسيغه ولا ينسجم وإياه.

وبالعكس فإن هناك دارسين موفقين ممن ألهبتهم العزيمة والتطلُّع وشغفوا بمحبة العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتضلُّع

في اللّغة الأجنبية الذي عند صاحبنا الأول، نراهم دائماً على اتصال بما جدّ ويجدّ في حقل الخبرات الإنسانية والأعمال الفَنّيّة المبتكرة، ينشؤون وينتجون باستمرار ودون انقطاع، ما يُثرون به تراثهم القومي وحياة الفكر في بلادهم، فهؤلاء هم الذين تعوّل عليهم الأمم والشعوب في تطوير عقليتها وإخصاب ثقافتها، لا أولئك الطفيليين الكسالى الذين لا غناء فيهم ولا فائدة تُرجى منهم.

ونعطي مثالاً من مغربنا العربي الذي يعتمد الفرنسية في الدراسات العامة، فإن عشرات، بل مئات من مثقّفيه قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العلمية، أو على الأَقلّ لا يعرف لهم أثر في هذه الحياة، وقد مرّ على تخرج الكثير منهم عشرات السنين، وذلك رغم إتقانهم اللّغة الفرنسية إتقان أبنائها لها، فالطبيب منهم يعالج المرضى إن لم يشغل وظيفة حكومية تكون أكثر دخلاً من مهنته تاركاً ميدان المعالجة للطبيب الأجنبي، وكذلك المحامي والمهندس وغيرهما، لا يزيدان على مزاولة مهنتهما بصفة عادية، ولقد عجز كثير منهم حتى عن إعداد أنفسهم للتدريس بالعربيّة في المدارس الثانوية لإنجاز مشروع تعريب التعليم، فإين ما يزعمه هذا الذي يقول إن الدراسة بلغة أجنبية تفتح آفاق التعليم والاطلاع؟

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد أكمل دراسته باللّغة العربيّة في بلاده، ثم ذهب في بعثة دراسية إلى فرنسا فأحرز الدكتوراه في الفلسفة والأدب بتفوُّق، ولما رجع إلى بلاده قام بحركة فكرية وأدبيّة عظيمة، درس وبحث، ونقد، وألَّف في أكثر فنون الأدب كتباً قيمة نقل الكثير منها إلى اللّغات الأجنبية الأوروبية وغيرها، وما لبث أن صار عميد الأدب العربي ورئيس المجمع اللّغوي، والغريب في الأمر أنه ضرير، فبكم يُقاس الدكتور

طه حسين من الدارسين باللّغة الفرنسية الذين ليس لهم هِمَّته وعزيمته، وإن كانوا في إتقان الفرنسية والعلم بها ربما يفوقونه؟

والعبقري الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللّغة العربيّة ومع ذلك فإنه كان آية في الاطلاع والتفتح على أحدث الأنظار العلمية والفلسفية وتغذية الأدب العربي والثّقافة الإسلامية بأحسن ما ظهر في عالم الفكر والمعرفة حتى أصبح قمة من قمم العلم والأدب. وكانت اللّغة الأجنبية التي يتقنها هي الإنجليزية وإنما تعلَّمها في السنوات الأولى من الدراسة الثانوية.

هذان المثالان وإن يكونا من عالم الأدب، فإنهما يجران ذيلهما على عالم العلوم. وقصدت الإتيان بهما الإلماع إلى جناية أخرى مما تجنيه الدراسة باللّغات الأجنبية على الحياة الأدبيّة في هذا الجناح من الوطن العربي.

إن بلاد المغرب كثيراً ما تشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الإنتاج العربي وقِلّة القرّاء ودور النشر أو انعدامها بالمرّة وتأخر فَنّ الطباعة العربيّة، وإن كثيراً من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الأسباب، ولكنهم قلّما ينتبهون إلى السبب الرئيسي في ذلك وهو انتشار الثّقافة الأجنبية وغزو الفكر الفرنسي لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلّة والكتاب الفرنسي للقارئ العربي، وحلول المكتبات الفرنسية محل المكتبات العربيّة وعودة فائدة ذلك كلّه إلى الكاتب والناشر والكتبي الفرنسيين. ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربي كالسينغال يفكِّر باللّغة الفرنسية وينتج بها، ولأمرٍ ما نجد المتعلِّمين بها أكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى

في التعليم الابتدائي كما كان عليه الحال أيام السيطرة الاستعمارية، لأنهم على ما يظهر يريدون أن يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها.

فهذا ما فعله التعليم باللّغة الأجنبية في وطن عربي كبير في الميدان الاجتماعي والقومي، ولن يكون أثره في المجال العلمي والتقني بأحسن من ذلك أثراً ولا أَقلّ ضرراً.

ويورد أناس مشكلة للمصطلح العلمي والاختلاف فيه على قِلّة ما وضع منه، ويجعلون ذلك عقبة في طريق تدريس العلوم باللّغة العربيّة، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة في هذا السبيل، وأمره أهون من ذلك، فأكثر المصطلحات العلمية عالمية مشاعة بين الأمم على اختلاف لغاتها، ونحن العرب لابد أن نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة، ولسنا في ذلك بدعاً من الناس، بل إن أجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الدوسانطريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مئات الألفاظ التي لم يغيروها وأبقوها على حالها، فضلاً عن التي عرَّبوها وأجروها على الموازين العربيّة فليسعنا ما وسعهم، لاسيّما والمصطلح ما هو إلّا لفظ يحتاج إلى الشرح ولو كان عربياً، فكيف يقف حجراً في طريق تدريس العلوم بالعربيّة؟!.

ولقد وضع الأفراد والجماعات وأصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التي تسهل مهمة مدرس العلوم فما عليه إلّا أن يجدّ في تحصيلها، وعلى جامعاتنا أن تزوِّد مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الأساتذة والمدرسين والطلبة والباحثين، ولا تأخذ أحداً من هؤلاء العزة بالإثم فيترفع عن الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوه في

هذا الصدد ويستغني عن التزوُّد بما قدَّموه من ثمار يانعة طالما تعبوا في قطفها، فإن العلماء يجب أن يكون خلقهم الإنصاف والاعتراف بالجميل لذويه وما نال من نال إلّا بالتنظيم والاحترام لأهل الفضل وما حُرِمَ مَنْ حُرِمَ إلّا بترك ذلك.

وأحسب أن ما يهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربيّة وتعدُّد الأسماء لمسمًّى واحد إنما هو من سوء التقدير وحب الشغب وإلّا فأية لغة ليس فيها ذلك؟ وإنك لتجد المؤلِّف توضع له اللوائح الخاصّة لتفسير مصطلحاته، ومع ذلك ما رأينا أهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كُتَّاب العربيّة لتوحيد المصطلحات حتى سارت نهجاً متبعاً، ما وقع الكلام على تعريب العلوم إلّا وأثارها هذا الكاتب أو ذاك ولو من سبيل التقليد، وهي كانت أحرى أن تُعدّ اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا تصد عنه، ولاسيّما لمن يشكون من قِلّة المصطلحات، كما أنها في نفسها- أعني هذه المصطلحات المتعدِّدة- قليلة وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المنكرون.

على أن مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة الذي أصبح يمثِّل البلاد العربيّة جمعاء، قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط وخطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعدِّدة وانتقاء الأصلح الواضح والدقيق الدلالة منها، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من أهل العلم والمعرفة من بقية الأقطار العربيّة الأخرى. فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من أمانته العامة ولا يبقى حائراً يُردِّد كلاماً قديماً لم يكن على صواب لما قِيل لأول مرّة فكيف به الآن وقد صار أسطوانة مملولة؟ والظن بل الواجب أن يستمر الوضع للمصطلحات من أهل العلم، وأن

تتمدَّد المصطلحات لذلك، وليكن مجمع اللّغة والسليقة العربيّة أو الحس اللّغوي المشترك بين أبناء العروبة في المشرق والمغرب هما اللذان يختاران ويقران ما يصلح. (أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث).

هذا وفي نفسي شيء أخاف إذا أبديته أن أُرمى بالمبالغة وربما بسوء الظن. ولكن لابد أن أشير إليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو أني أرى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الأيام حول صلاحية اللّغة العربيّة لتدريس العلوم وعدمها، أيادي تحركها وتنفخ في نارها وهي أيد ليست بنظيفة ولا تريد الخير للعرب ولا للّغتهم وإنما أصحابها يرون ويسمعون حيرة بعض الأقطار الإفريقية والآسيوية، وخاصّة الإسلامية منها التي استقلَّت أخيراً وملكت أمر نفسها، وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة أو لها هذه اللّغة وتريد أن تكتبها بحرف ما من الحروف الأوفق لنطقها وهجائها، وكثير من هذه الأقطار تتطلَّع للّغة العربيّة والحرف العربي، فلصدها عن هذا التطلُّع ولتشكيكها في قيمة العربيّة وصلاحية حرفها للكتابة الصحيحة، يوعز المغرضون بإثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلّات العربيّة بالذات، ويوحون بطريق غير مباشر إلى بعض أوليائهم- ومالي لا أقول بتواطؤ مع بعضهم- إلى الجهر بالحكم على العربيّة وحرقها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة العصرية وعدم الكفاية لما يتطلَّب المدّ الثوري الذي يكتسح البلاد العربيّة من تطوُّر في وسائل تحقيق البعث العربي الماديّة والمعنويّة ومنها أداة التعبير الملائمة للعصر.

إن أولئك الإخوان الأفارقة والآسيويين إذا سمعوا العرب أنفسهم يردِّدون هذا الكلام ويتهمون لغتهم أشنع الاتهام لابد أن يقر في أنفسهم ما يلقيه إليهم المستعمر الذي جلا عن أرضهم من الباب وعاد ليدخل إليها من النافذة، لاسيّما وهو لا يفتأ بمدّهم بالعون والخبرة المدخولة ويقدِّم إليهم

المشروعات الجاهزة في هذا المطلب وغيره من مطالب الحياة، ولذلك فإن المتأني والمتلبث منهم هو الذي يرجئ مسألة اتخاذ العربيّة لغة رسمية له أو اصطناع الحرف العربي للّغته، وغيره يعزم ولا ينتظر، ومن ذلك ما جرى أخيراً بين بعض دول إفريقيا من عقد مؤتمر تحت رعاية منظمة اليونسكو للنظر في وضع أبجدية لكتابة لغاتها وتوحيدها. وهكذا نُضيِّع على أنفسنا وعلى أصدقائنا فرصاً ثمينة لا تعوض، بجدالنا وتنازعنا، ولو كنا أبناء عصرنا حقيقة، لاغتنمناها لبسط نفوذنا الروحي في أقطار العالم، ولكنا أحرباء أن نرفع رأسنا فخراً بما لنا من ثقافة عالمية ولغة حيّة تعمل أكثر لغات العصر تقدُّماً لكسب مثل ما لها من مقام وحرمة وتأثير في حياة عدد من الشعوب المنتشرة في أطراف المعمورة.

ولا يُقال إن هذا الكلام عاطفي في مجال علمي، فإن العلم كلّ العلم أن ننهض بلغتنا وننشرها على أوسع مدى كما تفعل الأمم الراقية. ولو لم يكن في تبني لغتنا وحرفنا من طرف أمم أخرى غير عربيّة إلّا التثبيت وزيادة الإيمان للمؤمنين وإقناع الشاكين المتردِّدين لكان ذلك كافياً لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها في كلّ مكان، ولقمنا بتعاون، مع هذه الأقطار الراغبة في تعلُّم العربيّة بوضع برامج سهلة وميسرة لتلقينها لأبنائها ونشر مجموعة من الكتب المفيدة التي تظهرهم على كنوز الثّقافة العربيّة وتجعلهم يتذوقون الأدب العربي قديمه وحديثه ويتصلون شيئاً فشيئاً بالفكر العربي والتراث الإسلامي حتى يندمجوا ولو بعد حين في الشعب العربي ويصيروا من أخصّ أصدقائه وأقرب الناس إليه.

إن هذا «تكتيك» وليس عاطفة، ولكنه يتطلَّب من العمل قدر ما عندنا من القول «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ».

حين يتحدَّث المثقَّفون، وذوو الثّقافة العلمية منهم بصورة خاصّة، حول لغة العلوم ينقسمون في العادة إلى فئتين متميِّزتين يكاد يكون رأي أفراد كلّ منهما معروفاً مُقدَّماً. فالذين تلقّوا ثقافتهم العامة والعلمية باللّغة العربيّة يرون وجوب تدريس العلوم بلغة العرب، ويسوقون لذلك المبرِّرات والحجج في سعة اللّغة العربيّة وقدرتها على التعبير وفي الاعتبارات القومية التي تدعو إلى اتخاذ اللّغة الوطنيّة لغة البيان العلمي مثلما هي لغة البيان الأدبي. أما الذين تلقّوا ثقافتهم العامة والعلمية، أو العلمية على الأَقلّ، بلغة أجنبية فينحازون عادةً إلى الجانب الآخر، ويسوقون الأمثلة على عجز اللّغة العربيّة عن مسايرة التقدُّم العلمي وعن استيعاب المصطلحات العلمية، كما يسهبون في التحدُّث عن إنسانية العلم ووجوب تنزيهه عن الشوفينية والعصبية القومية، داعين بذلك إلى تجاهل الاعتبارات التي تمليها العنعنات الضيقة وإلى دراسة العلوم بلغة أخرى قد تكون الروسية أو الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية... أية لغة شرط أن لا تكون اللّغة العربيّة.

وتبعاً لهذه العادة المألوفة في الانقسام يكون متوقعاً في رأيي وجوب تدريس العلوم في جامعات بلادنا باللّغة العربيّة، مادمت طبيباً تلقيت ثقافتي العلمية باللّغة العربيّة. ولن تزيد الحجج التي أقدِّمها لهذا الرأي في العدد أو القوة عما أورده الأستاذ الدكتور بشير العظمة في مقاله المنشور في العدد السابع والأربعين من المعرفة. كما أن التبريرات التي أقدِّمها لتعليل إيمان بعض العلميين بقصور اللّغة العربيّة عن أن تكون لغة العلوم الحديثة لا تتعدَّى بكثير ما أورده أستاذنا الدكتور شوكت

موفق الشطي في العدد الخمسين من هذه المجلّة من كون هذا الإيمان مبنياً، في أحسن حالاته، على خصومة لا شعورية عند هؤلاء العلميين ترتد إلى خوف من التجربة أو جهل باللّغة أو إلى أنانية مفرطة. ولكن الذي أُريد أن أُشير إليه هو إغفالنا أن نسوق في عداد الحجج التي نقدِّمها لتدريس العلوم باللّغة العربيّة العامل النفسي الأصيل الذي مصدره حبنا لوطننا ولغتنا وتمسكنا بهما. والواقع أن إضرابنا عن ذكر هذا العامل ليس غفلة، بل هو تغافل أو تهرُّب من إيراده خوفاً من أن نتهم بالشوفينية المقيتة وبالتعصُّب الضيق وبإقحام الدوافع العاطفية في ميدان لا سيادة فيه إلّا للأمور الفكرية والواقعية المحضة.

ولكن هذا العامل موجود وراسخ في أعماق نفوسنا مهما حاولنا إغفال ذكره أو التمويه عليه بتفسيره تفسيراً سياسياً أو قومياً، ناظرين مثلاً إلى قيمة اللّغة كأداة لربط الشعوب العربيّة المتباعدة في أصقاعها والعديدة في ملايين أفرادها. فحتى لو أن العرب كانوا أمة كألبانيا لا يزيد عدد أبنائها على مليون وربع المليون ولا تزيد مساحة أرضها على ثلاثين ألف كيلومتر مربع لوجب أن تُدرَّس العلوم لأبنائها باللّغة العربيّة، كما تُدرَّس بالألبانية في جامعة تيرانا. هذا التعلُّق العاطفي باللّغة الأم في مجموعة بشرية هو دلالة من دلالات ثقة هذه المجموعة بنفسها كما هو نقطة ارتكاز لابد منها لكي تنتج هذه المجموعة إنتاجاً حضارياً ذا قيمة أصيلة. ولا محل للخجل من الإفصاح عن الشعور بهذا التعلُّق، فكما أن الرجل لا يُلام على حب قومه فهو لا يُلام على حبه للّغة قومه. والذين لا يؤمنون بالحقائق إلّا بدلالة سلوك الآخرين بموجبها، يجب أن يزوروا دولاً أوروبية كثيرة، لا يزيد عدد المتكلِّمين بلغات بعضها على الملايين

القليلة، ليروا كيف تُدرَّس كلّ العلوم في جامعاتها بلغاتها الوطنيّة، وليروا كيف أن أبناءنا الذين أمّوا تلك البلاد- لأن جامعاتنا ضاقت بهم- يدرسون الطب والهندسة بالبلغارية أو الكرواتية أو غيرها من لغات أوروبا الوسطى، دون أن يتهمهم أحد بأنهم يستقون العلم بأوعية لغات غير علمية. وفي تشيكوسلوفاكيا، البلد الموحَّد، جامعات تُدرِّس علومها بلغتين مختلفتين هما التشيكية والسلوفينية، ولم يطعن أحد على ذلك بقيمة العلم التشيكوسلوفاكي أو التكنيك التشيكوسلوفاكي أو بالتعصب الذميم الذي عليه الشعوب التي تؤلِّف سكان ذلك البلد الموحَّد. كما أن أحداً لم يدع إلى نبذ هاتين اللّغتين الضيقتين وتدريس العلوم في جامعة براغ باللّغة الفرنسية أمس والإنجليزية اليوم والروسية غداً والصينية بعد غد...

إن كلّ متعلِّق منا بلغته العربيّة، ومن ثَمّ كلّ محب لوطنه وأمته، لابد من أن يصدم بالدعوة التي قدَّمتها لجنة من الخبراء الأجانب إلى تعليم الطب في جامعة حلب العتيدة باللّغة الإنجليزية. والاستجابة إلى هذه الدعوة هي تمييع لكثير من مقومات وجودنا في الميدان القومي والاجتماعي، كما أنه في ميدان التطبيق نكسة لجهود مستمرّة وناجحة قامت بها سورية العربيّة في جامعة دمشق، وفي كلية الطب فيها بصورة خاصّة. وأكاد وأنا أكتب هذه الكلمات ألمح بسمات التشكُّك في ما أصفه من نجاح لجهود كلية طب دمشق تعلو شفاه كثير من العلميين الذين تلقّوا دراستهم باللّغات الأجنبية في جامعات عربيّة وأجنبية. والواقع أن هذا التشكُّك دائم التردُّد في الأحاديث التي تدور حول القيمة العلمية لدراسة الطب بلغة عربيّة. وهو ينصب دوماً على خريجي جامعة دمشق من أبناء كلّ

البلاد العربيّة، على الرغم مما قدَّمه هؤلاء الخريجون من خدمات في بلاد المشرق العربي، وعلى الرغم من أن التفاضل في القيمة العلمية لهذه الخدمات كان في غالب الأحيان تابعاً لشخصية الطبيب وميوله في متابعة الدراسة والاطلاع أكثر منه لقيمة الجامعة التي تخرَّج فيها. وأسمح لنفسي أن أكون قليل التمسُّك باعتبارات اللياقة فأتساءل عن العلماء الأعلام، بالمقياس العالمي لا بالمقياس المحلّي، الذين خرجتهم الجامعات، من عربيّة وأجنبيّة، التي تُدرِّس الطب باللّغة الفرنسية أو الإنجليزية في القاهرة وبغداد وبيروت. لقد عجزت اللّغات الأجنبية في هذه الجامعات ومدرسوها الأعاجم من مقيمين وزوار أن تخلق وأن يخلقوا من طلابها البحّاث الذين نفتقدهم في جامعة دمشق التي تُعلِّم بأساتذة عرب ولغة عربيّة. وفي كلّ البلاد العربيّة لايزال الذين يكتشفون الأدواء المحلّية هم العلماء الأجانب والذين يخترعون الأدوية الشافية لهذه الأدواء المحلّية هم العلماء الأجانب. ومثلما يرتبط اكتشاف البلهارزيا المستوطنة للقُطر المصري بأسماء بلهارز ومانسون وزملائهما قبل إنشاء جامعة القاهرة، يرتبط اكتشاف أدوية هذا الداء الوبيل بأسماء بحّاث ألمان وفرنسيين بعد إنشاء هذه الجامعة، ويرتبط في هذا العام اكتشاف دوائها الشافي بأسماء بحّاث أوروبيين يقيمون في بال بسويسرا[1]. بل إن الجامعات الأوروبية والأميركية المشهورة التي تُدرِّس طلابها بلغات التقدُّم العلمي، عجزت عن أن تخلق من أبنائنا، الذين يُبدون أثناء دراستهم فيها نبوغاً مشهوداً،

---

(١) في مجال البلهارزيا بصورة خاصّة تكاد تكون المساهمة ذات الشأن التي يذكرها المؤلِّفون الغربيون هي الأبحاث التي كُتِبَتْ عن عرض بيلة الدم النهائية كأول الأعراض المميّزة لهذا الداء.. وهذه الأبحاث كتبها باللّغة العربيّة أطباء العرب الأولون في القرون الوسطى، ومن هذه اللّغة تُرجمت إلى اللّغات الأوروبية.

العلماء الذين نريدهم ونحتاج إليهم حين يعودون إلى ديارهم ويعيشون في أجواء بلادهم.

ذلك أن اللّغة لم تكن أبداً سبب التقصير العلمي. وجدير بنا أن نبحث عن هذا السبب في عوامل أخرى يؤدي اجتماعها أو فقدها إلى خلق بيئة خاصّة، أو إلى فقد هذه البيئة التي في أحضانها تتكشف المواهب ويتحقّق الإبداع، هذه البيئة الخاصّة مفقودة الآن في أنحاء الوطن العربي أو أنها ضئيلة أثر الوجود. ولَعلّ من أسباب فقدها ضعف ثقتنا بنفسنا الذي يتظاهر باتخاذنا لغة غيرنا لغة علمية لنا، بالرغم من كلّ الإمكانات التي تتمتع بها لغتنا، والتي طالما أسهب في تعدادها المدافعون عن قدرة اللّغة العربيّة في هذا المجال. وإذا كنت لم أعد إلى تعداد هذه الإمكانات فلأني أردت أن أقصر حديثي على العامل النفسي الذي يتحاشى ذكره المتحدّثون في هذا المجال خوفاً من أن يتهموا بالتعصب وضيق الأفق، فأنا أؤكد على أن استمرارنا على استبعاد لغتنا عن ميدان العلم هو استمرار في إبقائنا في وضعنا العلمي الحاضر، وضع الإمّعة، لأن التبعية النفسية تسبق دوماً التبعية في التعامل وفي السلوك الحياتي، والاعتراف دون خجل بتعلُّقنا بلغتنا وبإيثارنا إياها على لغات الأجانب هو اعتراف بواقع، أو بواجب، لا يشين، وإخراج هذا الإيثار وهذا التعلُّق إلى ميدان التطبيق باتخاذنا لغتنا لغةً علمية هو السلوك الصحيح الذي يجب أن ننتهجه، والذي لا مَعْدىً لنا عنه لنتثقَّف علمياً، ثم لتتحول ثقافتنا من مرحلة الاكتساب والتلقّي إلى مرحلة العطاء الصحيح، القوي والأصيل.

الدكتور مدني الخيمي

طلب إليّ رئيس تحرير «المعرفة» أن أكتب في موضوع لغة العلوم وقد تردَّدت إيثاراً لراحة البال وبعداً عن الجدال في موضوع تعدَّد كتابه، وتشعبت به وجهات نظرهم. ولكن آراء الزملاء الذين سبقوني إلى الكتابة في (المعرفة) حفزتني إلى مساندتهم برأي قد يختلف في تفاصيله ولكنه في جوهره صنو لما وفقوا إليه في تقرير واقعنا العلمي.

لقد حاول أكثر من كتب في موضوع لغة العلوم أن يكون موضوعياً منصفاً، دون إفراط في التعصُّب لرأيه، ولكن قِلّة من هؤلاء الكُتَّاب قد بالغت في آرائها، حتى فاحت من مقالاتها رائحة الشخصية والانفعالية دون مُبرِّر. فأبطال الدفاع عن الأجنبية، كانوا في غالبيتهم، من الصنف الذي يغضب روح سيبويه، في قبرها، إذا نطق بلغة آبائه وأجداده، كما أن بعض المدافعين عن العربيّة، كانوا من الصنف المعاكس تماماً، يصعب عليهم تحريك ألسنتهم بغير الفصحى. هذه النماذج من المدافعين والمهاجمين هي مرآة صادقة، تعكس نأمات وجدانهم الشعورية أو اللاشعورية، وتلبس الدفاع عن النفس، ثوب الدفاع عن اللّغة، أو تلبس الدفاع عن العجز، ثوب الدفاع عن تقدُّم العلم.

بعضهم حكم على العربيّة بالموت، وأخرجها من كشف اللّغات الصالحة لتدريس العلوم، وأحب أن يقصرها على وصف الطبيعة، ومناجاة الحبيب، أو التقرُّب إلى الله بالصلاة والدعاء. وبعضهم جعل منها الأداة الطيِّعة الرشيقة، التي تصلح للصيغ الكيماوية، كما تصلح لأحدث المكتشفات: في الميكانيكا، والذرة، والصواريخ.

اللّغة العربيّة لغة العلوم

لا شك أن اللّغة العربيّة صالحة كلّ الصلاح لتدريس العلوم، على مختلف أنواعها، وما سمعنا عن أمة صغيرة أو كبيرة، تدرس العلوم بغير لغتها.

فالعربيّة أوسع انتشاراً من الإيطالية، والتركية، والبلغارية، وعشرات اللّغات الأخرى، التي تُدرَّس بها العلوم، ولا أظن أحداً يجحد إمكانيات العربيّة، لغة السهولة في الاشتقاق، والطوعية في إيراد المعاني بدقة وإيجاز، ولكن هذه اللّغة التي نقلت إليها كلّ العلوم المعروفة، إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، قد هجعت بعد ذلك هذه القرون العديدة، ونهضت الآن لتنهب الفراسخ، وتحرق المراحل، ولتأخذ مكانها في صف اللّغات، التي راكمت تعابيرها العلمية، خطوة إثر خطوة، وسنة بعد أخرى.

وصُدِمَ جيل النهضة، بهذا التخلُّف الكبير، وواجهوا لغة جافة الجلد، يابسة المفاصل، فعزفوا عنها يائسين، ولاذوا بالأجنبية يدرسون ويدرسون بها، إلّا قِلّة منهم، ننحني اليوم إجلالاً لجهدها الجبار، تصدت للعقبات تذللها الواحدة بعد الأخرى، وقد وقع هؤلاء العلماء في أخطاء طفيفة، لا مندوحة للرواد عن الوقوع بها، فقام الآخرون الذين فقدوا قدرة المجاراة إما لخورٍ في العزيمة، أو لجهلٍ مطبق بلغة أجدادهم، يشنعون عليهم، ويصفونهم بالعقم ويرمون العربيّة بكلّ نقيصة، ويُقرِّرون، بصورة بعيدة عن الموضوعية، استحالة تدريس العلوم باللّغة العربيّة.

أخطاء الروّاد

كان روّاد العربيّة الأوائل من المتزمِّتين، يُبرِّر لهم هذا التزمُّت، وجود الأجنبي المستعمر، وخوفهم على العربيّة من أن تكتسحها لغة هذا المحتلّ القوي، ولكن هذا التزمُّت تطوَّر، مع الزمن، إلى ظاهرة من ظواهر الضعف، شأن المرض النفسي، الذي يصبح مع الزمن عِلَّة وجود صاحبه، فإذا حاول طبيب أن يشفيه، انقلب حامله، في دفاع مستميت عن عِلَّة الوجود وهدف الحياة.

وروّادنا قد أمعنوا في تزمتهم، فأصبحت اللّغة والتقعر فيها الهدف، وضاع المقصود منها، وأضحت عوضاً عن أن تكون أداة لدراسة العلوم، مُسَخَّرة لهذه العلوم في دراستها، وقد روى لي أن أحد المتحمسين من أساتذتنا، الذين لا تُنكر خدماتهم الجلى وأياديهم البيضاء على لغة الضاد، كان، رحمه الله، إذا قِيل له: فلان الحقوقي أو الأستاذ في مدرسة الآداب العليا، يومذاك، قال كذا: في موضوع لُغوي يضحك من أعماق قلبه، ويجيب في تهكُّم بريء: ما شأن اللّغة بمدرسة الآداب - إشارة إلى أن اللّغة ومعرفتها، قد اقتصرت على كلية الطب، من دون كليات الجامعة الأخرى.

وقد أدى هذا الحماس، في أحوال نادرة، إلى التقصير في خدمة العلم، الذي يفترض، أن أستاذ مادته، في مُقدِّمة خبرائه على الأَقلّ، وعليه أن يستخدم أكثر وقته في تتبع ما استجد في فروع العلم الذي يدرسه، فإذا صرف القسم الأعظم منه - وما أَقلّه في تتبع موسوعات اللّغة والغوص في بطونها بحثاً عن كلمة طريفة لم يُسبق إليها ضاع على

طالبه الغاية، التي دخل الكلية من أجلها.

وكانت الكلمة الناشئة تُطلق على شيء في السنة الأولى، فإذا غاص زميل آخر في مكان أعمق، وعثر على لؤلؤة أنفس، ألبسها نفس المعنى، وحاول أن يقتل الكلمة الأولى، حتى ضاع الطلاب في خِضَمّ الغواصين!!

ونحن لانزال في كلية الطب مثلاً نُطلق الوزمة والخزب على نفس المعنى، والسلعة والجدرة على معنى آخر، ومترادفات أخرى خرجت من مصانع دمشق والقاهرة وتونس والرباط، أو هي على وشك الخروج دون رقابة مجمعية، أو اتفاق جماعي.

جهد مجامع اللّغة

وقد درجت مجامع اللّغة على نفس القاعدة، إلا في ظروف نادرة، فأعضاؤها في كثرتهم لغويون، لا ينكر علو كعبهم في ميدان اللّغة، ولكنهم مقتنعون، في قرارة نفوسهم، أن من حق اللّغة أن تصنع كلماتها كلّها بنفسها، دون حاجة إلى تجريب أو استعارة من لغات الدنيا الأخرى، وهذه هي العقبة التي خلقها هؤلاء العلماء، واصطدموا بها بعد ذلك، حتى كادت تقضي على حماسهم في التحويل العلمي، كما أعطت للمتشككين في قدرة لغتنا حجةً وسلاحاً، يشهرونهما في وجه المخلصين من بُناة التعمير العلمي العربي.

التعريب هو العلاج

والطريق الأوحد لشق هذه الطريق الوعرة المليئة بالصخور والأشواك هو فتح باب التعريب على مصراعيه، وتضييق باب الترجمة على قدر الإمكان، فإن المفردات التي تحتويها العلوم الدقيقة في: الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة والطب وإلخ.... تزيد على خمسين ألف كلمة، إذا أهملنا الكلمات المُركَّبة، وأن لغات العالم بأجمعها من اليابانية إلى الروسية إلى كلّ اللّغات التي لا تمت إلى اليونانية أو اللاتينية بصلة النسب أو القرابة، قد أدخلت هذه الكلمات في لغتها دون تعديل، أو بعد تعديل، يناسب نطق هذه اللّغات، وقد لاحظنا في السنين الأخيرة تقارباً بين اللّغات الأوروبية نفسها، ومحاولة لتوحيد الكلمات التي اكتسبت قداسة تاريخية. فقد بدأ الفرنسيون يستعملون كلمة الارتعاش الإنجليزية Therill، في مكان كلمتهم Fremisscment التي يعرفها الأطباء منذ قرن، وأدخلوا كلّ التعابير التخطيطية في أمراض القلب بصيغها الأصلية، كما فرنسوا كلمة الشدة Stress، بعد أن حاولوا ترجمتها بأشكال مختلفة.

طوعية التعريب

ونحن لا نقترح إدخال الكلمات الأجنبية، بصيغها الأصلية، بل نريد تعريبها بشكل ينسجم مع النغمة العربيّة، ودون أن نخترع لها كلمة يصرف الطالب في تعلُّمها نفس الجهد الذي يصرفه في تعلُّم الكلمة المُعرَّبة. ما الفائدة مثلاً، من تعريب كلمة: سنتمتر، وميليلتر، وهورمون وفيتامين، وما هو الضرر في أن نلفظها: هورمون أو هرمون أو

هارمون.. أو فتامين أو فيتامين، ولماذا لا نبقي على كلمة البنكرياس عوضاً عن المعثكلة؟ بل لماذا لا نُعرِّب الكلمة التي لا يمكن أن نترجمها بأي كلمة عربيّة تفيد معناها الأصلي، فكلمة: synthesc مثلاً يمكن أن تصبح سنتنزة وتصرَّف أيضاً: سنتز يسنتز، وستريس سترس، وقد نقول إنه يملك عقلاً مسنتزاً، أو هو مصاب بالستريس.

هذه أمثال قد لا أكون وُفِّقت بإيرادها، وأنا لا أصر على فكرة مُعيَّنة، ولكن المهم هو أن ننطح الصخر أو نشرب البحر.

تاريخ اللّغة الموحدة

كانت اللّغة العربيّة فـي عهد الازدهار الإسلامي لغة العلم، واستطاعت أن تكون الأداة الصالحة لكلّ ما تُرْجِمَ وعُرِّبَ عن اليونان والهند وفارس، ثم لعلوم جديدة وضعها العرب، وانتقلت بعد ذلك، عبر الأندلس، إلى أوروبا القرون الوسطى لتُترجَم من جديد إلى اللاتينية - لغة الكنيسة والعلم وقامت اللاتينية بدورها، كلغةٍ مشتركة بين العلماء، فأستاذ جامعة بادوا الإيطالية كان يستطيع أن ينتقل إلى كوتنبرغ الألمانية، ويدخل إلى قاعة الدرس رأساً ليحاضر بلغة يفهمها الجميع، ويحدث نظير ذلك فـي أي مركز علمي آخر فـي طول أوروبا وعرضها.

ومع أن الكهنة والعلماء كانوا يُستنفرون من طبقات شعبية، إلّا أنهم شكَّلوا طبقة خاصّة كانت دائماً بعيدة عن الشعب، مما جعل محاربتها

فـي أذهان العامة، تعني التحرُّر والانطلاق.

ولَعلّ نسف العربيّة فـي الشرق، واللاتينية فـي الغرب، واحدة من المصائب الكبرى التي أصابت سير العلم، إذا نظرنا إلى هذه الحادثة التاريخية بمنظار الحاضر، ولم نتأثر بالظروف المحلّية التي أدت إلى زوالها، المهم أن عدداً لا يُستهان به من العلماء يأسف أشدّ الأسف لأن هذا السيل الجارف من الأبحاث العلمية الحاضرة لا يكتب بلغة واحدة.

القلق من تعدُّد لغات العلم

ومن هنا نشأ التفكير باختراع لغة جديدة لغة علمية أسهل من اللّغات الحاضرة، يمكن تعلُّمها فـي بضعة أشهر، كالانترلنغوا Interieingua مثلاً، التي يُكتَب بها ملخص لكلّ الموضوعات، فـي عدد من المجلّات العلمية الكبرى.

وتعبِّر هذه المحاولة عن القلق الذي يساور العلماء بأن الإنتاج العلمي بلغات مُتعدِّدة مضيعة للوقت والجهد، ودفناً لآلاف الآراء القيِّمة، التي لا تجد من يأخذ بيدها إلى النور، خصوصاً إذا كانت مكتوبة، بلغة صغيرة لا يقرؤها إلّا أهلها، وليس هذا مقصوراً على العلوم، بل يتجاوزه إلى الفلسفة والأدب، فإن آلافاً من الكتب لا تدخل العالمية من بابها الواسع إلّا إذا تُرْجِمَتْ إلى لغة يفهمها مئات الملايين.

كَمْ من مُفكِّر نابه، أو فيلسوف نابغ، غمط حقه وأُهملت أفكاره، لأنه

لم يكتب إلّا بلغة مغمورة، ولم يُترجَم له، وذهب منسياً أو لم يكتشف إلّا بعد قرون، ومن الأمثلة على ذلك: معرفتنا المتأخرة بأن نصف أفكار سبينوزا على الأَقلّ، مسروقة من ابن رشد الأندلسي، أو أن الشيخ النفزاوي في كتابه الجنسي المبتذل قد سبق فرويد بمئات السنين، إلى ذكر الكبت والعقد النفسية.

كَمْ كان مجدياً لو أن الناس اتفقوا على لغةٍ واحدة لا تمت إلى قومية مُعيَّنة، حتى لا تُثير الحساسيات الإقليمية، والنعرات الوطنيّة، التي قضت على العربيّة واللاتينية، وجعلت العالم يصرف المليارات من أطنان الورق، وألتار الحبر في ترجمة وتلخيص، وسرقات تحت شعار التصرف.

لقد ظَنّ الناس في أعقاب الحرب العالمية الأولى أن الإنجليزية ستصبح لغة الطب العالمية، لأن أكثر من نصف كليات الطب في العالم، آنذاك، كانت تدرس بها، ولكن هذا الظَنّ قد زالت مُبرِّراته الآن، لأن هذه اللّغة لا يستعملها الآن، أكثر من سبعمئة مليون من الثلاثة آلاف، التي تُشكِّل سكان العالم.

في انتظار اللّغة الموحدة

وفي انتظار انتشار هذه اللّغة الموحدة التي قد تتبناها هيئة الأمم فتحلّ بها أزمة العالم الحاضرة وقد تنجح في ذلك، أكثر مما نجحت

فـي حلّ أزمات العالم السياسيّة.

ومع أنه من المستبعد أن تنتشر هذه اللّغة المثالية، فـي وضع العالم الحاضر، إلّا أنها ستبقى حلماً يداعب خاطر العلماء حتى يتحقَّق.

وفـي انتظار ذلك، يجدر بكلّ أمة أن تدرس العلوم بلغتها، واللّغة العربيّة لغة المئة مليون، لا يعجزها هذا إذا خلصت النوايا، وتوسَّعت الآفاق وأُهملت حماسة المدافعين عن اللّغة الأجنبية، وجلّهم ممن يدافع عن جهله للّغته، التي كان عليه أن يتعلَّمها، فإن من الحقارة أن يسمح لعربي أن يدرس فـي جامعة عربيّة، فـي أي مكان كانت، دون معرفة عميقة بلغته حتى ولو أتى بالمعجزة فـي فَنّه واختصاصه.

الحاجة إلى لغة أجنبية

غير أن الطالب الذي سيدرس العلم بلغته العربيّة بحاجة ماسة إلى لغة كبيرة إلى جانب لغته تعينه على التتبع والحركة، ومهما ذكر فـي التقليل من شأن ذلك، ومهما ورد من مُبرِّرات للحفاظ على الوضع القائم بالنسبة لجهل الطلاب المطبق باللّغة الأجنبية، مردود على أصحابه، فإن لغتنا فـي وضعها الحاضر لاتزال فـي مخبر النحت والتشكيل، وجهل الطالب بلغة مستقرة يرمي تفكيره بالفوضى وأحكامه بالتردُّد، ويعيق تكامله حتى ولو كان طبيباً فـي قرية نائية، لن يخاطب أحداً بهذه اللّغة، فإن ما نريده من اللّغة الأجنبية هو أن نُحسن قراءتها

دون جهد، وأن تُستخدم فـي المطالعة السريعة، ولا يهم بعد ذلك إذا اُستعملت أو لم تُستعمل فـي المناسبات الاجتماعية، فإن الحوماني، الذي ترجم شكسبير إلى العربيّة ترجمةً نادرة الدقة، لم يكن يُجيد الإنجليزية نطقاً، وما كان بإمكانه أن يستخدمها فـي صالون استقبال أو مناسبة اجتماعية.

سبيل إتقان اللّغة الأجنبية

لقد فشلت كلّ الجهود التي بذلتها كلية الطب فـي جامعة دمشق بتدريس اللّغة الأجنبية، ويحق لجامعة دمشق أن تؤخذ تجاربها بعين الاعتبار فهي الجامعة الرائدة التي أعطت اللّغة العلمية العربيّة تقاليدها.

وقد يُرَدّ هذا الفشل إلى أسباب عديدة ولكن السبب الراجح، هو عدم توفّر التصميم والجدية فـي تطبيق مقترحات اللجان المتعدِّدة التي شُكِّلت فـي مناسبات مختلفة، ومنها جعل اللّغة الأجنبية مادة مسقطة كأمثالها من العلوم الأخرى، وعدم اللجوء إلى تدريس أجزاء من بعض المواد بهذه اللّغة.

ويعود هذا الإهمال إلى الخوف، الموروث من عهد الانتداب، من أن تطغى هذه اللّغة على العربيّة، لغة التدريس الرسمية، ولا مبرِّر فـي الواقع لهذا الخوف فـي عهد الاستقلال والسيادة، لأن أية لغة أجنبية لا يمكن

أن تكتسح العربيّة، مهما عظم شأنها، وهذه تجربة ثبت نجاحها في عدد من البلدان التي سبقتنا أشواطاً في ميدان العلوم، والتي تدرس بلغتها القومية.

إن إتقان لغة أجنبية إلى جانب العربيّة، يمنحها قوة ويغذي الطالب بمصادر لا يمكن الحصول عليها في العربيّة، وينمي فيه روح الاستقلال في الدراسة والاعتماد على النفس في تكوين شخصيته العلمية ويبعده عن روح المدرسة الثانوية، التي لاتزال تعشش في تربيتنا الجامعية، دون أن تمتد لها يد قوية تجتث جذورها ومخلّفاتها، من عقول المدرسين والطلبة على السواء.

الخلاصة

وخلاصة القول إن تدريس العلوم باللّغة العربيّة أمر لا يناقش، فهو ضرورة قومية واجتماعية، وهو في عالمنا الحاضر صفة ملتزمة بجامعات الدنيا بأسرها، حتى التي لا تُعدّ إلّا بعض ملايين، غير أن هذه اللّغة العلمية يجب أن تعتمد على التعريب وصوغ الكلمات بلباس عربي دون التقيُّد بحرفية النطق، ودون اهتمام بالتشويه إذا اقتضت الضرورة ذلك.

كما أن هذا التعريب يجب أن يتم تحت إشراف الجامعة العربيّة وبالاتفاق مع مجامع اللّغة والعاملين في هذا الحقل جميعاً، وأن

يُصار إلى نشر ما اُتفق عليه بأوسع وسائل الإعلام، وأن يصدر بذلك قاموس يتجدَّد كلّ عامين، حتى تدخل هذه الصياغة المستحدثة إلى مؤلَّفات المدرسين فيألفها جيل الطلبة الصاعد.

كما أن على علمائنا أن يرضخوا لهذه التعابير مهما خالفوها في قرارة نفوسهم، فإن باب الاجتهاد يجب أن يُسدّ بعد الاتفاق، لأن فوضى الكلمات التقنية تفقد المؤمنين بلغتهم إيمانهم بها وحماسهم للكتابة بها.

كما أن على المتزمتين الكارهين للغة أجنبية تسدّ النقص في تعابيرنا أن يخفِّفوا من غلوائهم.

وليذكر المخططون والمعقدون للمستقبل أن حياة الإنسان قصيرة، وأن عليهم أن يمهِّدوا لحياة جيل جديد يجب أن يؤلّف جزءاً من ركب العالم، لا قوقعة على هامش الدنيا، تجتر ذاتها، وتنطوي في احتضار مستمر.

لن نفقد الأمل بمستقبل اللّغة الواحدة لعلوم الإنسان كلّها، لغة لا قومية لها ولا أصول مُعيَّنة تُردّ إليها، قد تكون كما قال شو لغة تُشبه الإنجليزية وتُكتب بحروف عربيّة دون تنقيط أو تكون شيئاً آخر لا يخطر لنا الآن على بال.

غير أنها ستكون أداة مُوحِّدة لإنسانية الإنسان، يفهمها علماء الأرض جميعاً ضرورة يشعر بها كلّ من حاول أن يقرأ العلم بعِدّة لغات،

وفـي انتظار هذه الولادة العسيرة، لابد من أن تسند العربيّة فـي دراستنا لغة كبيرة، أما أن نجعل من لغة أجنبية سبيلاً إلى دراستنا، فأمرٌ قد كانت له بعض المُبرِّرات قبل ربع قرن، ولكن القطار قد فاته الآن وفُقدت حيثيات هذه المُبرِّرات منذ زمن طويل.

تدريس العلوم بالعربيّة فرض قومي، وربما كان من أقوى العوامل فـي تحقيق الوحدة الفكرية بين أقطار الأمة العربيّة جميعها.

«المعرفة» - يونيو 1966